

في الفلسفة الإسلامية

إخوان الصفاء
الأستاذ عمر الدسوقي

مقدمة

في أواسط القرن الرابع الهجري ذهبت سدة الخلافة العباسية واستبد بالخلفاء مواليم من فرس وديلم وترك، وسامو، الخسف وسو، العذاب، فاستقل كثير من الأمراء عن بني العباس وأسسوا دويلات صغيرة: كآل بويه، وآل حمدان، والساسانيين وغيرهم، ولم يبق للخليفة من مظاهر القوة شيء.

بيد أن هذا الانحطاط السياسي في الدولة لم يمنع الحياة العقلية من الازدهار لتنافس الأمراء في تقوية دويلاتهم علمياً وأدبياً؛ فها الشعر ونضج التفكير، واشتدت حركة النقل والبحث في العلوم الفلسفية على اختلاف شعبها ثم هضمها وصبغها بالصبغة الإسلامية وكان من عواقب الانحطاط السياسي للدولة العباسية تكوين كثير من الجماعات السرية وغير السرية التي تحاول القضاء المبرم على العباسيين حتى تضع غيرهم مكانهم، أو توجد لنفسها كياناً مستقلاً. ومن هذه الجمعيات التي ظهرت في منتصف القرن الرابع الهجري «جماعة إخوان الصفاء» وهم من الشيعة الباطنية الذين لم يرضوا عن الخليفة العباسي كما لم يرضوا عن الخلافة الفاطمية في مصر. وحاولوا قلب النظام السياسي بقلب التفكير العقلي وإيجاد ثقافة جديدة يعتنقها شباب عصرهم مقتفين في ذلك أثر الفيتاغوريين وأفلاطون. ومن المعلوم أن الفيتاغوريين كانوا جماعة سرية إصلاحية حاققة على نظام الحكم اليوناني وأنهم حاولوا تغييره

(*) لم نجد بين أيدينا شيئاً متيحاً عن إخوان الصفاء ودراسة رسائلهم ومدى تأثيرهم بالذاهب الفلسفية اليونانية ولذلك اعتدنا أولاً وقبل كل شيء على قراءة هذه الرسائل، واستنباط ما يمكن أن يفيدنا في هذه الدراسة المختصرة. ومن المراجع التي اعتدنا عليها:

- ١ - تاريخ فلاسفة الإسلام لدى بور
- ٢ - رسالة صغيرة بمكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت للسيد عبد اللطيف الطياوي
- ٣ - كتاب مفكرى الإسلام لكرادي نو Carra de Vaux
- ٤ - مقدمتنا الدكتور طه حسين بك وأحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفاء
- ٥ - كتاب النهاية الإسلامية لسير توماس أرنولد وما ورد فيه خاصاً بطائفة الاسماعيلية

بخلق مذهب جديد ونظريات حديثة عن العالم ونشأته داعين إلى الزهد والتقوى. ومن المعلوم كذلك أن أفلاطون كان ساذجاً على حكومة أثينا. فلا الأرستقراطيون أرضوه لما يرتكبهونه من ظلم وجور، ولا الديموقراطيون حققوا آماله للفوضى التي ضربت خيامها في أثينا؛ ولذلك حد في وضع منهج جديد للحكومة في كتابه الجمهورية وإن كان قد فشل حيناً حاول تطبيقه عملياً

أما إخوان الصفاء فقد نالوا شيئاً من النجاح لأنهم من الاسماعيلية الباطنية. وهؤلاء قد استطاعوا أن يوجدوا لأنفسهم كياناً سياسياً مكن لهم في بعض الأراض ونشر الرعب في العالم الإسلامي. وسنرى فيما بعد أدلتنا على أنهم من الاسماعيلية بل إن رسائلهم هي دستور هذه الطائفة

من أهم أعمالهم الصفاء (١)

لقد أحاطت هذه الجماعة السرية نفسها بسياج متين من الكتمان ويقولون في ذلك: «إنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفاً من سطوة الملوك ذوى السلطة، ولا خذراً من شغب الجمهور من العوام ولكن صيانة لمواهب الله عز وجل لنا (٢). لذلك حار الناس قديماً وحديثاً في معرفة أسماؤهم، ولولا ما نقله القفطي عن أبي حيان التوحيدي (٣) في هذا الصدد وتعداده لبعض الأسماء المشهورة بينهم

(١) أمرت هذه الجماعة اسم إخوان الصفاء لأنها كانت متحدة ممتزجة نير نحو هدف واحد. وكان عندهم شيء من الزهد والتصوف. والتصرف يت بسبب كبير إلى صفاء النفس، وقد تحدثوا كثيراً عن الصداقة وكيف يختار الصديق - أي الذي سيدخل معهم - أما صيغة الاسم فأقدم ما نعرفه عنها ما ورد في النقاش:

لعمر ما أس طليل بن مالك بن عاصم إذ ثابت الخليل تسمى

وودع إخوان الصفاء بقرزل يمر كريح الوليد الفزع

ثم وردت هذه الصيغة في كتاب كلية ودمنة في باب الحمامة المطوقة، وقد جاء في الرسائل ج ١ ص ٥٣ ما نصه (فاعتبر يحدث الحمامة المطوقة المذكورة في كتاب كلية ودمنة)، وقد كان الإخوان مسجيين بهذا الكتاب وعنه اقتبسوا كثيراً من الحكايات، فلا يستبعد أن يكون قد أوسى إليهم بهذه الصيغة. أما السبب الحقيقي فهو ما بين الإخوان من اتحاد وامتراج وصفا وإتهان في الهدف (طياوي)

(٢) رسائل ج ٤ ص ٢١٥. ولكن هذا ليس هو السبب، فقد

كاتبوا يخافون السيف وأن يقصوا في أيدي الظالمين - رسائل ج ٤ ص ١٠١

(٣) هو أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس الصوفي كان

منتقياً في جميع العلوم يشبه الجاحظ في علمه وأدبه، وقال له شيخ الصوفية

وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة وقال عنه ياقوت: (كان يتأله والناس

على قمه من دينه) وقد حكم التأخرون بزندقته فطلبه الوزير الهلبي، وقد

درس الفلسفة على عدى بن زيد، وأبي سليمان الجبتيان محمد بن طاهر

القطبي، وتوفى في سنة ٤٢٨٠هـ وقيل في سنة ٤٠٠هـ يفيداً فقيراً معدماً

وقد كان لاحتكاك أبي العلاء مع تلك الجماعة وتعرفه على مختلف النظريات الفلسفية والدينية والصوفية الأثر الأكبر في اتجاه أفكاره وفلسفته، فيقول الأستاذ ما كدوالله... يظهر أن أبا العلاء اتصل بفتنة مثل إخوان الصفاء إن لم يكونوا هم أنفسهم^(١)،
ومما تقدم نرى أن إخوان الصفاء كان مركزهم الرئيسي بالبصرة وكان لهم فرع قوى ببغداد، وأنصار ودعاة في مختلف البلدان والأمصار

أما الزمن الذي وجد فيه الاخوان فهو أواسط القرن الرابع الهجري : ومن العسير تحديد السنة ، بيد أن هناك ما يرجح أن الرسائل ألفت فيما بين سنتي ٣٣٤ هـ و ٣٣٣ هـ ؛ لأن بدء ظهورهم كان على أثر سيطرة آل بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، ولم نسمع بهم قبل هذا التاريخ ، ومن الجائز أن تكون جماعتهم قد تأسست قبل ذلك وبعيت في طي الكتمان ، ولم تتجرأ على إظهار الرسائل إلا بعد هذا التاريخ^(٢)

تظام جماعتهم

كانت جماعة إخوان الصفاء تتكون من أربع طبقات : الأولى شبان يتراوح عمرهم بين خمس عشرة وثلاثين سنة ، وهم الذين يسمونهم في رسائلهم بالاخوان الأبرار الرحاء . ويظهر أن الرسائل قد ألفت لهذه الطبقة لأن الخطاب فيها موجه دافعاً إلى الأخ البار الرحيم . أما الطبقة الثانية فرجال بين الثلاثين والأربعين يتلقون الحكمة الدنيوية ، ويظهر أنه كان يعهد إليهم مراعاة الاخوان ومساعدتهم والتحقق عليهم ، وهم الذين يسمون في الرسائل بالاخوان الأخيار الفضلاء . والطبقة الثالثة رجال بين الأربعين والخمسين من العمر وهم يعرفون بالناموس الالهى ، كما أنهم أحباب الأمر والنهى والسلطة بين الاخوان ، وإليهم يعهد بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق والمداواة في إصلاحه) ، وهم الذين يسمون بالاخوان الفضلاء الكرام . والطبقة الرابعة وهى مرتبة من يزيد على الستين سنة وهى أعلى المراتب في نظامهم ومن يصل إليها يكون فوق الطبيعة والشريعة والناموس ، ويكون ذا كشف يستطيع به أن يشاهد (أحوال القيامة من البعث والنشر والحساب والميزان)^(٣)

والآن ! كيف يقبل المرشح لعضوية هذه الجماعة ؟ تجيبنا

لعلى علينا الأمر قد ذكر في أثناء حديثه عن زيد بن رفاعه (أنه أقام بالبصرة طويلاً وصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي (ويعرف بالمقدسي) وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني وأبو الحسن العوفي وزيد بن رفاعه)

مظاهر وزمانهم :

كانت البصرة مركزهم الرئيسي وإن لم يذكر الاخوان شيئاً من ذلك في رسائلهم بيد أن القفطى قال : (وقد أقام زيد بن رفاعه بالبصرة زماناً طويلاً وصادق بها جماعة لأصناف العلم ... الخ) ، وهناك ما يؤيد رأى القفطى وهو أن البصرة كانت منذ أسست عاصمة العلوم الاسلامية ومحط كثير من رجال الفقه ، فيها نشأ الحسن البصرى ورؤساء المعتزلة ، وفيها قام عبد الله بن ميمون بفتنة القرامطة أصل منهج الاسماعيلية في أواخر القرن الثالث الهجري ، وفيها قام أبو الحسن الأشعري يتنصل من الاعتزال ، وكانت فيها حلقات العلم من كل فن وفي مربعها ينشد الشعراء قصائدهم ؛ فلا عجب إذاً أن كانت البصرة مأوى إخوان الصفاء . هذا وقد كان للجماعة أنصار في مختلف البلدان ولهم دعاة يشررون بذهابهم بطرق منظمة ؛ وفي هذا يقولون : (إن لنا إخواناً وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد) . ويظهر أنه كان في بغداد جماعة أخرى على اتصال وثيق بإخوان الصفاء وعنها يقول أبو حيان التوحيدى في كتابه المقابسات : (من أعضائها أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني ، وأبو زكريا العميرى ، والمروضى أبو عبدالمقدسى ، ويحيى بن عدى ، وأبو اسحاق الصابى ، وماتى الجوسى) ، ويظهر أن أبا سليمان النطقى السجستاني كان رئيس هذه الجماعة فكثيراً ما يقول أبو حيان (دارت في مجلس أبي سليمان ... مناظرات) ، ويقول : (أملى علينا أبو سليمان)^(٤) . ويظهر أيضاً أن أمر هذه الجماعة الفلسفية كان على شاكلة أختها في البصرة سرياً ؛ فقد ثبت أن أبا العلاء المرعى كان يختلف إلى هذه الجماعة بدار عبد السلام البصرى أيام الجمع حينما قدم ببغداد وهم الذين سماهم إخوان الصفاء حين يقول :
كم بلدة فارقتها ومعاشر يذرون من أسف على دموعا
وإذا أضعفتى الخطوب قلن أرى لوداد إخوان الصفاء مضيما
خللت توديع الأصادق للتوى فتى أودع خلى التوديسا^(٥)

(١) Muslim Theology ص ١٦٧ (٢) الطيأوى

(٣) رسائل ج ٤ ص ١١٩ - ١٢٠

(٤) المقابسات ص ٥٧

(٥) تجديد ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين بك ص ١٥١

الرسائل : (أنه يبني لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا في البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقاً مجدداً أو أخاً مستأقفاً أن يعتبر أحواله ويتعرف أخباره ويجرب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصدقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أو لا يصلح . لأن في التماس أقواماً طبائهم متفارية خارجة عن الاعتدال ، وعاداتهم رديئة مفسدة ومذاهبهم مختلفة حائرة)^(١)

وكانوا يتحرون عن الشخص الذي يريد الإنضمام إليهم كل التحري ، ويحذرون إخوانهم من الاغترار بالطواهر : (واعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق ، ويدلس عليك بشبه الموافق ، ويظهر لك المحبة وخلاتها في صدره . فانظر من تصحب وتماشر ولا تتقر بظاهر الأمور من غير معرفة بواطنها . . . بل ينبغي أن تنتقد كما تنتقد الغرام واللدائير والأرضين الطيبة الترية للزرع والفرس وكما ينتقد أبناء الدنيا أمر الترويج وشراء المالك والأمتعة)^(٢) . . . (لأن إخوان الصديق هم الأعداء على أمور الدنيا والدين جميعاً وهم أعز من الكبريت الأحمر ، وإذا وجدت منهم واحداً فتمسك به فإنه قوة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة وابدل له نفسك ومالك وافرش له جناحك وأودعه شرك وشاوره في أمرك وإن هفا هفوة فاعف له)^(٣)

وكانوا يحثون الإخوان على أن يعاون النبي منهم الفقير والتعلم الجاهل ويؤثرون أصدقاهم على أنفسهم وأولادهم وأزواجهم ، لأن محبة هؤلاء لمصلحة دينية ، أما الإخوان الذين انضموا إليهم ، فيحبونهم لله

فإذا ما قبل المصروفوا عليه خطبة فيها دعوتهم وغايتهم : « وينبغي لإخواننا إذا حضروا المجلس ومعهم أخ مستجيب يستحب أن يقرءوا عليه هذه الخطبة : اعلموا - أيها الإخوان - أيدهم الله وإيانا روح منه ، وهذا لكم للحق ، وجعلكم من أتباعه ، وسهل لكم سبيل الخير ، وأرشدكم إلى معرفة أهله ، وعصمكم من الشر ، وجنبكم محبة أهله ، وحرسكم من اللزوم الشيطان ، ووقاكم جور السلطان ونكبات الزمان ونواب الحدائن ، ووهبكم لقبول نصيحة الإخوان ، إنه ودود منان - اعلموا أن كل دولة لها وقت منه تنتهي ، ولها غاية إليها ترتق ، وحد إليه تنتهي ؛ وإذا بلغت أقصى مدنى غايتها وامتحنى نهايتها ، أخفت في الانحطاط والتقصان ، وبدأ في أهلها الخللان ،

واستأنف في الأخرى القوة والنشاط والانبساط والظهور ، وجعل كل يوم يقوى هذا ويضعف ذلك وينقص ، إلى أن يضمحل الأول المتقدم ، ويتمكن الحادث المتأخر . . . وقد تزون - أيها الإخوان - أنه قد تناهت قوة أهل الشر وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان ، وليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط . واعلموا أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان من أمة إلى أمة ، ومن أهل بيت إلى أهل بيت ، ومن أهل بلد إلى أهل بلد . . . واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون في بلد ، ويتفقون على رأى واحد ، ودين واحد ، ومنهجه واحد ، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً بأهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً ، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم ، وكفئس واحدة في جميع تدابيرهم^(٤)

وقد كان للجماعة دعاة ومبشرون يجتهدون في اختيار أعضائه جدد يضمونهم إلى صفوف الإخوان ، وقد كانوا يدربون تدریباً خاصاً على العناية : (واعلم أيها الأخ أيدهم الله وإيانا روح منه أن لنا إخواناً وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد ، فتمهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعمال ، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والمهاترين والتجار والتناء)^(٥) . ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء ووجهة الدين ، ومنهم طائفة من أولاد الصناع والتصرفين وأمناء الناس . وقد ندبنا لكل طائفة منهم أخواً من إخواننا ممن ارتضينا في بصيرته ومعارفه ينوب عنا في نصيبهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة . وقد اخترناك أيها الأخ البار الرحيم لمعاونتهم فامض على بركة الله وحسن توفيقه إلى أخ من إخواننا ، وتوصل إليه بالرفق على خلوة وقراخ من مجلسه وطيبة من نفسه فأقرأ عليه منا التحية والسلام ، وبشره بما يسره من نصيحة الإخوان ، وعرفه بحمة شوقنا إلى إخوانه ومودته وولايته ، ثم أقرأ عليه هذه الخطبة (التقدمة المذكورة) وعرفه بمنايتها وفهمه مزارها ومقصدها . . . (تبن وقت هذه التذكرة منه مكانها من القبول وصحت فحبه إلى ما أشرنا إليه فذلك

(١) ج ٤ ص ٢٢٥

(٢) الدهاقين جمع دهقان بكسر الهمزة وفتح الدال وضحا وهو حاكم الأقاليم المتصرف فارسية سمرة ، والتناء بالكسر جمع تان من تان بلكان أى ألام به ومناهه الرباط

(٣) الرسائل ج ٤ ص ٢٣٦

(١) رسائل ج ٤ ص ٢٠٧

(٢) الرسائل ج ٤ ص ١٠٨ (٣) الرسائل ج ٤ ص ١٠٩